طفولة مسلوبة

أذكر جيداً تلك الليلة في ذلك الزمان الغابر حين كنتُ ألعب وسط قريناتي من الفتيات الصغيرات، كنا متشابكات الأيدي ندور حول دائرة وهمية أسميناها وردة ، كنا نضم أيدينا وأجسادنا الغضة ثم نتباعد على قدر اتساع أذرعنا القصيرة مرددين بابتهاج "فتَّحي ياوردة.. قفِّلي ياوردة. " جذبتني أمي بعنف وأدخلتني البيت و عنفتني ، قالت لي: ألم تنظري إلى جسدك، ألم تعي التغيير الطارئ عليه ؟ لم أفهم ما تقصده ، فنظرتُ لجسدي ثم لها نظرة بلهاء تفضح جهلي بما تقول.

مَررتْ يدها بشكل خاطف على صدري قائلةً .. هذان النهدان لم يعودا لطفلة صغيرة، أنتِ الآن في عِداد البالغات، كفي عن اللعب في الشارع، ماذا سيقول عريسك إذا ما رآكِ تلعبين وتركضين كالبلهاء في الشارع ؟ كيف سيكون موقفه إذا ما لاحظ ترجرج جسدك صعوداً وهبوطاً أثناء الركض والقفز ؟ صعقتني كلمة "عريسك" وما تلاها من كلمات غريبة على مسامعي ك "النهدان ، والبالغات، وترجرج "ولم أستوعبها جيداً .

فجأة دخلت بيتنا امرأة غريبة الهيئة، خشنة الملامح، ضخمة البنية، متشحة بالأسود من رأسهاإلى أخمص قدمها ، هللتْ أمي لرؤيتها ورحبت بمجيئها وهمست لها بشيء اصطحبتني على أثره تلك المرأة المخيفة إلى غرفة نومي، وفور ولوجنا الغرفة أغلقت الباب، وجردتني من ملابسي، وأخرجت من بين طيات ملابسها كيساً شفافاً به شيئاً داكناً لم أدر ما كنه، لحقت بنا أمي في الغرفة ومددتني على سريري دون أي مقدمات ، أمسكتني من ذراعيَ بقوة شالةً حركتي ، أما المرأة المخيفة فقد أبعدت بين فخذيَ ، هنا وفي تلك اللحظة استشعرتُ الخوف ، رأيتُ في يد المرأة المخيفة موساً جديداً أخرجته للتو من علبته، وبحركة فجائية انهالت على ما بين فخذي، شعرت بموسها يقطع جسدي إرباً، صرختُ من فرط الألم فلم ترحمني، حتى أمي شاركتها في تعذيبي وكأنها نسيت في تلك اللحظة أني ابنتها، مرت دهور وأعوام وأنا تحت سن الموس الحامي حتى أنهت المرأة المخيفة مهمتها وتركتني هي وأمي جثة هامدة لا حول لي ولا قوة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها وجه تلك المرأة ، وبعد أسبوع وللمرة الثانية أراها أمامي في بيتنا صرخت بشكل هستيري دون أن تقترب مني، تفاجأت أمي بصراخي ولأول مرة بعد حادثة الموس تأخذني

أمي في خضنها وتربت على ظهري قائلةً لي بعض الكلمات المطمئنة حتى اطمأنيت قليلاً وعاد لي بعض هدوئي .

قالت لي أمي لا تخافي من خالتك نبوية هي لم تفعل لكِ شيئاً مؤذياً هي فعلت معك ما يجب فعله مع كل البنات حين تصل سن البلوغ، ولثاني مرة أسمعها تنطق بكلمات جديدة على مسامعي لكني لم أحاول سؤالها عما تقصد .

قالت لي أيضاً أن الخالة نبوية أتت اليوم لتحممك! نظرتُ متعجبةً فأردفت أمي: نعم "حمام العروسة" يبدو أن أمي تحتفظ بقاموس جديد ملئ بالمصطلحات العجيبة، تساءلتُ : أي حمام وأي عروسة؟! فلم أفطن للمقصد إلا بعد دخولي غرفتي التي أصبحت تشهد في الآونة الأخيرة كل عذاباتي المتتالية !

أما المرة الثالثة التي رأيتُ فيها المرأة المخيفة فكانت في اليوم التالي لليلة "حمام العروسة" حين ألبسوني الفستان الأبيض والطرحة البيضاء ووضعوا لي مساحيق التجميل وحلوا صفائري، وصففوا لي شعري بعناية، ووضعوا ذراعي الصغير في ذراع ذلك الرجل الذي يبدو من هيئته وشاربه الكبير أنه في عمر أبي أو يزيد ، سحبني ذو الشوارب إلى بيته وأدخلني معه غرفة صغيرة والتي رغم طلاءها الذي يبدو أنه حديثاً إلا أن الغرفة بدت لي كئيبة،

وشعرت أن هوائها الحار يجسم على صدري ، دخلتْ معنا المرأة المخيفة وللمرة الثالثة تجردني من ملابسي وبدون استخدام موساً شعرت بأصبعها في نفس مكان حادثة الموس يشقني نصفين ، دارت بي الغرفة وتصبب مني العرق وسمعت ذو الشوارب يصرخ: ما كل هذه البركة من الدماء ؟ قالت المرأة المخيفة: إنها تنزف ، ستموت البنت ، البنت ستموت ، ثم لم أسمع شيئاً بعدها!.